الفصل الخامس عشر

قفـزة فـي الهـواء!

منذ المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م وما عقد بعده من مؤتمرات صهيونية، تبنت الحركة الصهيونية عدة مبادىء، مثل:

- قومية يهودية (الصهيونية).
- جعل فلسطين أرض إسرائيل.
- تجميع اليهود في فلسطين.
- علمانية الدولة.
- الثقافة المشتركة لليهود.
- ومسميات لمباديء أخرى.

عملت الصهيونية جاهدة على تحقيق تلك المبادئ ومرادفاتها، واستطاعت أن تُقيم الدولة الصهيونية على تراب فلسطين، واستطاعت أن تجلب ملايين اليهود إلى الدولة الصهيونية! لا شك بأن عوامل نجاح الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية كانت متوفرة كما هي اليوم، بسبب ما تُمثله الصهيونية من أسباب نفوذ متعددة في المجتمعات وفي العالم.

لكن الدولة الإسرائيلية لو احتكمنا للمنطق لم تكن ولادتها طبيعية، لأن الظروف التي تم فيها الحمل لم تكن على أساس زواج شرعي وحمل طبيعي، لا يختلف أحد على أن اليهود موجودون في هذا العالم ووجودهم في دول كثيرة وسيطرتهم على المال والإعلام هو ما أوجد إسرائيل، وهذا متفق عليه ولا يشك به أحد، من هنا نجد أن وجود الجاليات اليهودية في العالم هو ما أوجد إسرائيل وهذا صحيح، ولكن إذا اختفت الجاليات اليهودية أو تناقصت من هذا العالم وخصوصًا من المجتمعات الغنية في الدول المتنفذة، فإن ذلك سيؤدي إلى اختفاء إسرائيل، كيف؟

الحركة الصهيونية ممثلة بإسرائيل الآن تضع أولى اهتماماتها، بأن تجلب أكبر قدر من عدد يهود العالم إلى إسرائيل، لأن رافد الهجرة هو شريان الحياة لزيادة عدد السكان، لتأكيد مقومات دولة تفتقر إلى التوازن الديمغرافي مع من يتواجد فيها من أعراق أخرى، وكذلك مع من حولها من ملايين البشر من العرب والمسلمين.

لو افترضنا أن إسرائيل نجحت في استقطاب يهود العالم، وتم إحضارهم جميعًا إلى إسرائيل (فلسطين)، هل تواجد غالبية يهود العالم في إسرائيل يعوض النفوذ الصهيوني اليهودي العالمي الذي أوجد إسرائيل وجعلها تستمر حتى يومنا هذا؟ المنطق يقول لا!

من هنا نجد أن البذرة التي نبتت وأصبحت إسرائيل أثمرت بذور فناء هذه الإسرائيل. دعنا نتخيل بأن لا وجود لليهود خارج إسرائيل، ولا وجود لثقل المال اليهودي خارج إسرائيل بافتراض أن فاعلية اليهودية العالمية انتقلت إلى إسرائيل نفسها! هذا يعني بأن النفوذ الإسرائيلي سيضعف على وتيرة كلما تناقص عدد اليهود في الخارج كلما خف نفوذهم الداعم لإسرائيل من قِبل المجتمعات التي يغادرونها، في مقابل عوامل أخرى لِنَقُل إنها ثانوية حتى هذا الوقت مثل التأثير العربي القومي - والإسلامي الذي ما زال مغيبًا تقريبًا، أو كازدياد النفوذ العربي في المجتمعات الغربية لأكثر من سبب، فالنقص عند الصهاينة هو زيادة عند أعدائهم، والضعف عندهم هو قوة عند العرب.

بناء على إحصائيات معهد التخطيط في إسرائيل، فإن الإحصائيات تُشير مثلاً إلى أن عدد اليهود في العالم خارج إسرائيل في سنة ٢٠٠٤م كان قد بلغ ٩,١٢ مليون نسمة، وعددهم في سنة ٢٠٠٧م قد بلغ ٧,٧٦ مليون نسمة، وهذا يدل من ناحية أخرى إلى تزايد عدد اليهود في إسرائيل، لكن نسبة القادمين إلى إسرائيل تقل فقد بلغ عدد معدل القادمين الجدد إلى إسرائيل ٢٤ ألف نسمة، إذن أين ذهب الباقون! وكم معدل المغادرين من إسرائيل؟

تشير نفس الإحصائية إلى أن هناك زيادة في معدلات الهجرة المعاكسة بسبب الزواج المختلط والاندماج في المجتمعات الأخرى، هذا عوضًا على أن الزيادة في عدد السكان عند الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية أو عند أهالي الضفة والقطاع هي أعلى بكثير من نسبة زيادة عدد السكان في إسرائيل من اليهود، فلو أخذنا عامل نقص عدد السكان اليهود في إسرائيل فإن هذا يُعتبر عاملاً سلبيًا أيضًا سيُعَجِّل مع الأيام حتى في الظروف الطبيعية أن تتلاشى

إسرائيل، هذا إذا لم تلعب الأسباب والدوافع الأخرى عند أصحاب الأرض الأصليين من الفلسطينيين والعرب إلى قلب المعادلة بحجم الصدام المباشر مع الدولة الصهيونية.

إن تناقص أعداد اليهود في دول العالم سيؤدي قطعًا إلى تراجع النفوذ اليهودي في الحياة السياسية والاقتصادية لتلك الدول، مما يُقلل مستقبلاً كل أشكال الدعم، وستظل إسرائيل في خطر دائم! صحيح أن قدوم هؤلاء اليهود إلى إسرائيل سيكون له فاعلية في تقوية إسرائيل، لكنه لن يكون بحجم تطور أمة تعدادها ٣٠٠ مليون نسمة تتململ وتتشكل ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا وتتألم من الوجود الصهيوني في القدس الشريف.

كما أن بروز الحركة الوطنية الفلسطينية كبديل، وتقويتها وخصوصيتها الإقليمية، ستظل العامل السلبي في حياة الدولة الصهيونية، وهذا رديف آخر في صالح الفلسطينيين إضافة إلى رديف السلام لو تحقق شيئًا منه لكي يسترد الفلسطينيون والعرب التقاط أنفاسهم.

قال الداهية اليهودي الأمريكي، الدكتور "هنري كيسنجر" عن الوطنية الفلسطينية، إن أهم ما يواجه إسرائيل منذ قيامها هو مفاجأة وجود حركة وطنية فلسطينية! يبدو أن زعماء الصهيونية كانوا حسب نبوءاتهم وتحريفاتهم الأيديولوجية والإعلامية، يصدقون أنفسهم بأن من يعيشون غربي نهر الأردن من الفلسطينيين ليسوا شعبًا وإنما أفرادًا وجماعات لا ينتمون إلى فلسطين، ولذلك فمنذ ما قبل صدور وعد بلفور، كانت آلة الإعلام الصهيونية تردد مقولة "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب"، ويبدو أنهم صدقوا أنفسهم منذ ذلك الحين، إلى أن تفاجأوا بعد قيام إسرائيل بعنف المواجهة مع الحركة الوطنية الفلسطينية، التي راحت تتطور بسرعة إلى أن أجبرت إسرائيل رسميًا أن تعترف بشعب اسمه الشعب الفلسطيني، ذلك بعد أن ظلت تُنكر وجوده كشعب، حتى أن الصهاينة ما زالوا يكابرون حتى الساعة (٢٠١٠م) ويسمون الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية

بعرب إسرائيل، وهم بذلك ينكرون عليهم فلسطينيتهم متأثرين بالدعاية السابقة حينما كانوا يقولون لا يوجد شعب اسمه فلسطين.

هذا، وإن إجبار ثلاثة أرباع المليون من الفلسطينيين على ترك بيوتهم عام ١٩٤٨م، بسبب إقامة دولة إسرائيل وتزايدهم حتى أصبحوا ملايينًا من البشر قد خلق لإسرائيل معضلة وسيظل القنبلة الموقوتة، ولأكثر من سبب طبيعي فإنه يظل العامل الأكثر فاعلية مع تقلبات الأيام مهما قلنا عن فاعلية الكم المؤجلة بالنسبة لتميز الكيف كون لا يوجد سكون في حركة التاريخ.

البروفيسور "آفي شلايم" يهودي من أصل عراقي، يُجيد اللغتين العبرية والعربية ولغات أخرى، ويكتب في صحف كثيرة منها "جريدة الجارديان" البريطانية، ويعتبر من أكثر المثقفين تعمقًا في الصراع العربي الإسرائيلي، يقول البروفيسور "آفي شلايم في كتابه "السور الحديدي"، "بإن إسرائيل وقضية اللاجئين متلازمتان لا تُحل أحداهما إلا على حساب الأخرى".

لا شك بأن الصهيونية قد استخدمت بمهارة نظرية معاداة السامية استخدامًا أيديولوجيًا في الداخل، فشحنت المجتمع الإسرائيلي وخلقت منه بسبب هاجس الأمن جيشًا له شعب بعكس كل المجتمعات الأخرى، كما استخدمت معاداة السامية أيضًا في الخارج لتسويق مشروع الوطن القومي، ولهذا حققت في الداخل أهدافًا هامة، مثل إحياء اللغة العبرية والاستيلاء على الأراضي واستيطانها، وهي تقول للدنيا بإنها واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وهي في الحقيقة تقوم على الظلم واغتصاب أملاك الغير،

إن الديمقراطية والعنصرية لا يلتقيان، وأسباب وجود إسرائيل تحمل في طياتها أسباب زوالها، وسيبقى التوازن قائمًا بين أسباب وجودها وأسباب زوالها بناء على الإيقاع الحالي إلى أن تثقل أسباب أخرى إحدى كفتي الميزان، سواء هي الأسباب العربية السلبية أو الأسباب الإيجابية على مدى السنين القادمة!

الطاقة والفعل:

حرصت الأمم في عصر ثورة تكنولوجيا المعلومات على التركيز على تنشئة أجيالها النشأة السياسية والأيديولوجية التي تبقي اللحمة في المجتمع بسبب شدة الغزو الأجنبي الإعلامي القادر على تمرير كل شيء للمجتمع المحلي، فالتنشئة السياسية هي العملية التي تجعل الفرد في مجتمعه يتلقى الاتجاهات والمشاعر تجاه الخط السياسي الذي يسير فيه كيان دولته، فعلى سبيل المثال.. في الكتب المدرسية الأمريكية وفي معظم الكتب المدرسية في الدول الأوروبية، هناك تبرئة كاملة لإسرائيل، وفي المقابل هناك تُهم وإيحاءات غير سارة للعرب بصفة عامة، لهذا يصح القول بإن التنشئة السياسية هي نقل ثقافة الخطاب السياسي السائد في المجتمع بكل ما يتضمنه من مُثُل ومعتقد ومقاييس إلى الأجيال الجديدة في الأمة، البعض يُسمي هذه العملية هي التوجيه المعنوي للفرد أو العنصر، وآخرين يُطلقون عليها التوجيه والإرشاد، والدعوة والفكر، وأيًا كانت التسمية فالمعنى واحد هو التوجيه السياسي، هذا إذا كان لنا اهتمام كعرب، ونود معالجة الخسارة الفادحة التي جعلتنا لعبة ومطية للأمم الأخرى، بل ومكنت اليهود الصهاينة من إنشاء وطن لهم عنوة في قلب الوطن العربي واتخذوا من القدس الشريف عاصمة لهم.

من ثمار وأهداف التنشئة السياسية هي أنها تضمن استمرار النهج في المجتمع، وتزرع روح التضامن والولاء للمجتمع أيضًا دون غيره، وتبقي على القيم الأخلاقية والوطنية والقومية، وكذلك تحمي الأفراد من غزو عقولهم من قِبل قيم أخرى، لا شك بأن عملية التنشئة السياسية هي عملية مستمرة لا تقتصر فقط على التلاميذ الصغار من خلال الكتب المدرسية، هي عملية دائمة لكل الأجيال في المجتمع عبر مراحل الحياة المختلفة، فعوضًا أنها تُعطى في المدارس فهي موجودة أيضًا في دور العبادة وفي الفن وفي دور الثقافة، وهي دائمة بطريقة أو بأخرى عبر إعلام المجتمع، لذلك قد ترى شخصًا ما من هذا المجتمع، وترى شخصًا آخر من مجتمع دولة أخرى، تراهما يتشابهان في أمور كثيرة من ناحية

الشكل والمظهر والذوق الحضاري العام، وربما هما يعودان أيضًا إلى عرق بشري وأصول واحدة، وقد يتحدثان نفس اللغة، إلا أن ما بداخلهما من مشاعر وقيم وفضائل ومعايير وانتماء وولاء لا تتساوى!

من هنا عرفتْ الصهيونية مبكرًا، كيف تسعى إلى كل يهودي في العالم وتجنده بطريقة ممنهجة، قالت لليهودي الأرثوذكسي لكي تنال الثواب من الرب، هيا لكي تقيم معنا دولة الله على أرض الميعاد، وقالت لليهودي العلماني هيا لكي تتحرر من قيود العبودية والتفرقة العنصرية ومعاداة السامية، وأقنعت من هم ما بين النقيضين من الطوائف الأخرى بنسج منهج تعبوي بصور إرشادية أخرى، وصار الجميع موالين ويخدمون الفكرة الصهيونية ومشروع الدولة اليهودية إلى أن أقيمت دولة إسرائيل في النهاية.

في سنة ١٩٩٥م زرت قطاع غزة (الكاتب) بعد دخول السلطة الوطنية الفلسطينية إلى غزة بعام واحد، وأمضيت أجازة سعدت بها بلقاء من تبقى أحياء من الأهل وزرت أماكن طفولتي، حينما انتهت الزيارة، في الطائرة التي غادرت مطار بن جوريون الإسرائيلي، جلستْ في المقعد المحاذي لمقعدي في وسط الطائرة خلال العودة إلى البلد الذي أقيم فيه فتاة في عمر أبنائي، مظهرها العام يوحي بأنها أوروبية أو أمريكية، ولما كانت الرحلة طويلة فكان لا بد أن يترك بعض ركاب الطائرة مقاعدهم أحيانًا، فيقومون من المقاعد لقضاء حاجياتهم أو لأجل تنشيط الدورة الدموية في الأجساد المعتقلة في مقعد الطائرة خلال الساعات الطويلة، وحيث أن مقاعد الطائرة عادة ما تكون متراصة والممرات ضيقة، وبعض الأشخاص لا بد أن يستأذنوا من يجلس بجانبهم لأجل أن يستطيعوا الخروج من مقاعدهم إلى الممر العام في الطائرة، فقد حدث أن الفتاة التي كانت تجلس بجانبي تركت مقعدها عدة مرات ثم كانت تعود، وكان عليَّ في كل مرة كانت الفتاة تترك فيها مقعدها أو تعود إليه أن أقف وأسهل مرورها لكي تأخذ مكانها في مقعدها ثانية، بين استئذانها لي وخروجها تاركة المقعد ثم عودتها والاستئذان مني ثانية، صار هناك نوع من التعارف، وتم تبادل كلمات أخرى أكثر من الاستئذان والشكر،

ثم تطور الأمر ودفعني فضولي أن أتجاوز تلك الكلمات والعبارات الروتينية، ومـــا دامت الرحلة طويلة فكان لا بد أن يُعبِّر الإنسان عن ضجره بأي شيء، فشـــدني الفضول وتجرأت وسألت الفتاة:

* هل أنتِ إسرائيلية؟

- لا بل كندية.

* هل أنتِ وحيدة في هذه الرحلة أم هناك أحد يجلس في مكان ما بالطائرة؟

- وحدي.

* عفوًا.. أنا في سن والدك أو أكبر فليس هناك حرج لو سألتك، كم عمرك؟

- ١٩ سنة وشهور قليلة.

* ماذا كنتِ تفعلين في إسرائيل؟

- كنت أزور إحدى العائلات في أحد الكيبوتسات (المستوطنات الزراعية).

* هل أقمتِ كل الوقت بالفندق؟

- قلتُ لك عند العائلة.

* ما علاقتك بتلك العائلة قبل حضورك إلى إسرائيل؟

- لا شيء إلا أن المنظمة رتبت لي هذه الزيارة.

* هل أنتِ يهودية؟!

- نعم.

* ماذا كنتِ تفعلين خلال الشهر الذي أمضيتيه في إسرائيل؟

- كنت أقوم بعمل تطوعي في الكيبوتس.

* هل لك أسرة في كندا؟

- أجل.. والداي، ونحن نُقيم في مدينة تورنتو.

* هل أنت مولودة في إسرائيل؟

- لا. أنا مولودة في كندا.

* ووالداك؟

- ووالداي أيضًا، وكل أقاربنا مولودون في كندا.

*** ماذا تعني لكِ إسرائيل؟**

- كل شيء.

*** ماذا تعنين بكل شيء؟!**

- أنني يجب أن أقف بجانبها.

*** لكنك لم تولدي فيها، وحتى والديك لم يولدا هناك!**

- حتى ولو كان ذلك.

*** اسمعي هذه المزحة وأرجوك أن تُجيبي بصراحة! لو أن حربًا قد اندلعت بين كندا وإسرائيل، وكان عليك بأن تكوني مجندة في أحد الجيشين وأن عليك تحاربي فمع من تحاربين؟**

- مع إسرائيل طبعًا.

*** لكنك لم تولدي في إسرائيل ولم تعيشي فيها!**

- حتى لو كان ذلك فيجب أن أقف بجانب إسرائيل، تعلمنا هذا!

بعد ذلك الحوار البسيط، لم أجد ما أسأل الفتاة عنه وسكت، ولم يعد كلانا للحديث ثانية ولم أذكر أنها غادرت مقعدها واستأذنتني بعد ذلك، وربما هي أيضًا أدركت أو اكتشفت بأنني لم أكن مسرورًا برأيها، لا شك بأن ذلك الحديث البسيط مع فتاة من الجيل الجديد قد عنى لي الكثير، وجعلني وأنا في طائرة تحلق في تلك اللحظات على ارتفاع سبع وعشرين ألف قدم عن سطح الأرض أحلق على أقصى ارتفاع يمكن أن يسمح به الخيال الغاضب على تخلف مجتمعنا العربي عن توجيه الأجيال التوجيه الصحيح.

لا شك بأن الكتب المدرسية تُقدم الغرض من التنشئة بطريقة منظمة وسلسلة وسهلة ومغرية، فهي تقدمها من خلال المعلومات الدراسية التخصصية التي تعني طالب العلم لكي يستطيع أن يقوم بدور في حياته مستقبلاً لكي يعيش بالطريقة والمهنة والأسلوب الذي يقبل به، كما أن بعض العلوم مثل التاريخ أو العلوم الاجتماعية عادة ما تدَّعي الموضوعية، وهي تعبر إلى عقل الطالب ومعها القصد من التوجيه السياسي كأنها حقائق لا تناقش، الأهم من ذلك فإن الكتب المدرسية

تُخاطب عقل الطالب الذي ليس لديه دراية بأمور أخرى بسبب صغر السن، فهو من هذه الناحية صفحة بيضاء، ومواضيع الكتب المدرسية هي أول ما تحتل فراغات تلك الصفحة ومع الأيام يُزاد عليها، لهذا نجد الشباب في المجتمعات عادة ما يكونون الأكثر حماسًا وتعصبًا في القضايا السياسية، أو الالتفاف حول الزعماء الذين ينادون بما عند هؤلاء الشباب مما زرعته الكتب المدرسية من مباديء وقيم.

لهذا، ماذا يتوقع أن يكون عليه الجيل الأمريكي والأوروبي مثلاً الذي تحوي كتبه المدرسية عن الدولة الصهيونية، بأنها دولة لليهود الذين أبعدوا عن وطنهم آلاف السنين، وأن تلك الأرض توراتيًا هي أرض وهبها الله لهم لكي يُقيموا عليها دولة الله على الأرض، وأن هؤلاء الصهاينة منذ أن انشأوا دولتهم عام ١٩٤٨م صنعوا المعجزات على تلك الأرض، ويغيب عن تلك الكتب المدرسية طبعًا تاريخ الفلسطينيين، ويَغيب أو يُغيَّب أن فلسطين لم تكن خالية من أصحابها منذ ما قبل قدوم سيدنا إبراهيم إلى تلك البلاد وحتى ١٩٤٨م، كما أن تلك الكتب لا تُشير إلى ما عاناه الفلسطينيون على مدى ما ينيف عن ستين عامًا من نكبات وويلات وآلام وتشريد وتيه وافتقار إلى أبسط الحقوق الإنسانية التي ذكرتها الشرائع والقوانين والدساتير البشرية، هذا عوضًا عن التزييف الذي تختزله الكتب المدرسية في بلاد الغرب عمومًا حينما تُبَسِّط ما حدث في فلسطين على أنه لا يعدو عن قرار دولي بتقسيم فلسطين، جزء أصبح دولة مستقلة حرة هي إسرائيل، وآخر تم ضمه للأردن، وأن العرب يودون أن يغرقوا دولة اليهود في البحر، ولنا أن نتخيل كبر المعنى حينما تقول بعض الكتب، بإنه منذ أن أعلن قيام دولة لليهود، فإن خمس دول عربية أعلنت الحرب على الدولة الوليدة.

وتقول أيضًا كتبهم المدرسية للنشيء الجديد عن حروب إسرائيل ضد العرب، بأن حرب ١٩٤٨م كانت حرب دفاعية عن استقلال الدولة اليهودية، وحرب إسرائيل ضد مصر عام ١٩٥٦م بأنها كانت حربًا وقائية لأن مصر لا تسمح للسفن الإسرائيلية ولا للسفن التي تحمل بضائع إسرائيلية بالمرور عبر قناة السويس،

وأن حرب عام ١٩٦٧م ضد مصر كانت بسبب أن مصر قد أغلقت المنفذ الوحيد لإسرائيل إلى البحر الأحمر.

باحتواء الكتب المدرسية للمجتمعات الغربية لمثل ما سبق من إيحاءات وتضليل وتشويش وتجاهل لكل ما حدث للفلسطينيين على أيدي الصهيونية والدول المساندة، فإنها تجعل من الطالب الفاعل العادي أو القيادي في مجتمعه مستقبلاً، متحيزًا للصهيونية بصفة عامة، وبهذا تُكرس تلك الكتب صورة سلبية عن العرب.

من هنا، فإن الأمر يدعو إلى الانتباه، والعمل على إصلاح الوضع القائم في المنظور الغربي حتى يستطيع العرب أن يفرضوا صورة موضوعية متوازية مع الزيف الذي تقنع به الصهيونية الآخرين عن القضية الفلسطينية، وهو ما يتوجب على الأقل العمل على إطلاق الطاقات الكامنة عند الأفراد في المجتمع العربي، وجعلها توجد حقائق الإنتاج على أرضها، لكي تجعل العالم يحترم العرب ويحترم قضاياهم، وبدافع المصلحة التي لا يعرف الغرب سواها، فإنه يمكن إجبارهم على تغيير مناهج التعليم لكي تُصبح منطقية ومتوازنة، وليس بالتسول والاستجداء اللذان لم يخدما قضية منذ أن قامت إسرائيل، وهذا لن يتم إلا إذا أطلقت الطاقات الكامنة عند الأفراد في البيئة العربية، وهو ما لن يتم إلا إذا تم تهيئة الإنسان العربي لكي يظهر إنجازاته أو كما يتاح للعربي المهاجر إلى البلاد الأجنبية لكي يُصبح فعالاً منتجًا، ودور واضعي مناهج التعليم في البلاد العربية هام في المساهمة بالإيحاء للنشيء الجديد أن يكبر ويصبح منتجًا لا مُهملاً.

لقد قيل إن الشيء يُعرَّف بنقيضه! وهل هناك أدل من هذا لكي لا يشغلنا شيء عن المواجهة مع الدولة الصهيونية، إن هذا يقودنا بالطبع للتعرف على إمكانيات المواجهة وأدوات تنشيطها وتحفيزها وجعلها واقعًا في حياتنا.

لا نستطيع أن نُغمض عيوننا ونتجاهل فورة القرن الحادي والعشرين التي أتت بزخم معلوماتي هائل، ما كان له أن يُغطي الكرة الأرضية لو لم يكن هناك تفوق

حضاري ما في أحد زوايا الكرة الأرضية، فكان كالغيمة يزحف في سماء الكرة الأرضية ولم يتخفى حتى بالتسمية فجاء متحديًا وقال إنه العولمة.

إن الإمكانيات الاقتصادية والعلمية التي تفوقت على طاقة دولة واحدة أو أمة واحدة، هو الذي جعل ظاهرة العولمة تنتشر وتفرض نفسها وتخترق حدود الدول وتصل إلى العقول دون أن يستطيع الحاكم المحلي أن يتحكم فيها بعد أن عجز عن حجبها، إن قوة الاختراق العلمي والتقني الإلكتروني أصبحت أكثر فاعلية من الاختراق الفكري الذي كان السلاح الماضي في بدايات القرن العشرين، في الماضي كان يمكن أن يبقى الفكر خارج حدود الدول إلى حد ما، عدا ما يتناقله الركبان فرادى، وكان يظل محبوسًا في الكتب خلف الحدود التي تطيل مسافاتها بعد الدول والقارات عن بعضها، ولم يكن يُغير شيئًا قدوم عالم أو شخص إلى وطن الأم كان قد تعلم في الخارج في أرقى الجامعات ويمكن أن يصنع التغيير في وطنه، إن كثيرًا من الطلاب العرب مثلاً من مصر وسوريا والعراق وغيرها ذهبوا إلى أوروبا في القرن العشرين، وتعلموا وأصبحوا ذوي اختصاصات وعلماء، وحينما عادوا إلى بلادهم لم يصنعوا شيئًا.. لماذا؟ السبب لأن حتى العلم والثقافة والقدرة على إنجاز شيء يحتاج إلى بنية تحتية في المجتمع، مثل البنى التحتية للخدمات العامة والتطور والتحضر هو طاقة شعب أو أمة في النهاية، إذن كان لابد من وجود ذوق علمي في المجتمع وتنبه ورغبة وقناعة بأن أي شيء يعتمد على التغيير، وتلك هي البنية التحتية التي تتمثل في أفراد المجتمع الذين يرون أن حاجاتهم لا يمكن الحصول عليها إلا بتخطي تلك العقبة والتسلح بمعرفة جديدة.

لا يكفي مثلاً أن يحفظ الطالب في المدرسة أو الجامعة النصوص، إنما الأفضل أن يتعلم كيف يمكنه أن يفهمها أولاً، كان في إحدى الجامعات أستاذًا في كلية الهندسة، كان يقوم بتدريس مادة ميكانيكا الموائع "هيدروليك"، وهي مادة تعتمد على البحث والتجربة ثم البرهان، كان اللافت للنظر في طريقة الأستاذ حين تدريسه لتلك المادة، أن طريقته في التدريس كانت غير ما كان يتبعه غيره، عند تصحيح الامتحانات كان الأستاذ لا يُعطي الدرجة على الأجوبة النهائية، كثيرًا ما

كان يُعطي الدرجات العالية ليس لمن يأتون بالأجوبة الصحيحة بل للذين يُفكرون بطريقة أكاديمية صحيحة، في بعض الأحيان كان يُعطي درجة النجاح لطالب استطاع أن يوجد حلاً واحدًا فقط من خمس أو ست أسئلة، تكون هي كل مسائل الامتحان، إن أعجبه أسلوب الطالب وهو يتعامل مع المسألة أو القضية العلمية، فيقول الأستاذ لنفسه، "هذا الطالب يستحق أن يكون مهندسًا لأنه يملك العقل الهندسي"، وفي أحايين أخرى كان لا يشفع لطالب آخر عمل ما عمل وأجاب على عدد لا باس به من الأسئلة بطريقة تقليدية، إلا إنه جعل الدكتور المصحح للامتحان يُعطيه درجة الرسوب في المادة كونه قد تعامل مع إحدى مسائل الامتحان بطريقة لا تدل أن لديه العقل الهندسي، وكان لا يجعل الطالب يحصل على شهادة التخرج إلا بعد أن يعيد السنة الدراسية ويضحى ذو عقل هندسي.

قضايا العلم والبحث كثيرة والاستدلال عليها يحتاج إلى الانفتاح وخلق البنية التحتية البحثية الاجتماعية التي أشرنا إليها، لهذا نجد أن المجتمعات المتطورة أكثر لا تعرف الاستقرار أو الركود فهي في حركة فكرية دائمة، تهتم بكل جديد، ولا تترك حجرًا على حجر، وتظل تقارن بين الشيء ونقيضه، وتعتصر الأفكار وتُخرجها على صورة مناهج تعليمية وبحثية، وتغرسها في المجتمع، ويشارك فيها كافة الأركان التي يقوم عليها المجتمع من علم اجتماع وفلسفة وعلم نفسي وديني ووطني، في إسرائيل.. رغم أن الصفوة التي تقود قد أتت من مجتمعات متطورة بالفعل، فإن مناهج التعليم والتربية لا تغفل أحدث الطرق والوسائل العلمية والبحثية في تهيئة الفرد وتحفيزه وتشجيعه لكي يُظهر طاقاته بأقصى حدودها الممكنة ويقدمها كفعل في مجتمعه.

إحدى المُدَرسات الأمريكيات، ذهبت لكي تزور عدة دول في العالم بتكليف من إحدى المناطق التعليمية في موطنها، كانت مهمتها أن تُلقي نظرة على طُرق التدريس في البلاد الأجنبية، وتعد تقريرًا للمنطقة التعليمية، فعسى أن يكون هناك ما يمكن به تطوير مناهج التعليم في أمريكا! منذ أن كُلِفتْ تلك المُدرسة بالمهمة،

أعطت الموضوع الأهمية اللازمة وتفتق عقلها بأن تختار موضوع بحثهـا لكـي يكون تدريس الرسم للأطفال في البلاد التي ستزورها.

ذهبت أولاً إلى الصين ومن خلال القنوات الرسمية حصلت على إذن لزيارة إحدى المدارس الابتدائية، وفعلاً دخلت إحدى المدارس الابتدائيـة وطلبـت أن تحضـر درسًا نموذجيًا في الرسم، كان موضوع درس الرسم في ذلك اليوم هو رسم قطة، في الوقت المحدد دخلت مع مدرسة الفن (الرسم) الفصل وجلست على أحد المقاعد الخلفية، وراحت تنظر إلى ما كانت ترسمه مُدرسة الفن على السبورة، وصـارت تراقب ردود أفعال التلاميذ.

شرعت المدرسة أولاً في رسم القطة، رسمت دائرة كبيرة بالطباشير واعتبرتهـا جسم القطة، ومع تماس الدائرة الأولى رسمت دائرة أخرى أصغر كثيرًا على أحد الجوانب واعتبرتها رأس القطة، رسمت أعلى الدائرة الصغرى (الرأس) مثلثـين منفصلين قريبين من بعضهما متساويي الضلعين واعتبرتهما الأذنين للقطة، داخل الدائرة الصغرى رسمت ثلاث دوائر صغيرة كناية عن العينين والفم، ثـم قالـت للتلاميذ هيا ارسموا قطة! راحت المُدرسة الأمريكية تُراقب وتلحظ ما كان يفعـل تلاميذ الفصل، مر وقت الحصة فوجدت أن كل التلاميذ قد رسموا قطة واحدة مثل القطة التي رسمتها المدرسة على السبورة، كتبت المدرسة الزائرة ملاحظاتها في دفترها، وشكرت المدرسة الصينية وغادرت الصين.

لما وصلت إلى الهند فعلت مثلما فعلت في الصين وحضرت درسًا نموذجيًا لرسـم قطة، فوجدت أن التلاميذ الهنود قد رسم كل واحد منهم قطة واحدة مثلما رسـمت لهم المدرسة على السبورة، ونفس الشيء حدث حينمـا زارت مصـر وإيـران وغيرهما من أقطار العالم الثالث، وجدت التلاميذ أيضًا يرسم كل واحد قطة واحدة مثل القطة التي رسمت على السبورة.

حينما عادت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ذهبت إلى إحـدى المـدارس فـي الولاية التي تقيم فيها، وحضرت درسًا للرسم أيضًا، في الفصل رسمت المدرسـة

قطة على السبورة وطلبت من التلاميذ الصغار أن يرسموا قطة، لاحظت المدرسة الزائرة بأن التلاميذ قد رسموا قططًا لا عدد لها لا قطة واحدة، من التلاميذ من أضاف أرجلاً للقطط، أحد التلاميذ رسم قطة واحدة وقام بتلوينها، وآخر رسم القطة وجعل الفم كبيرًا، وآخر رسم ثلاث قطط متساوية في كل شيء، وآخر رسم قطتان إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة، وآخر رسم فريق من القطط وراح يلون كل واحدة بلون خاص.

استطاعت المدرسة أن توحي في تقريرها الذي أعدته بعد ذلك بأن هناك فروق في طريقة وأسلوب إعداد البنى التحتية في عقول النشيء تقود إلى خلق بنى تحتية جامدة وأخرى مرنة في الثقافات البشرية والفهم العام في أي مجتمع، استطاعت أن تُبيِّن كيف يمكن أن يؤثر منهج التعليم في إيجاد الدوافع التي سيكون عليها مجتمع ما بالنسبة إلى غيره من المجتمعات، ونفس الشيء بالنسبة للتربية أيضًا، هناك فرق بين القيم والمُثل والصفات والاتجاه والقناعة بأمر ما بين مجتمع وآخر.

لذا نجد في القرن الواحد والعشرين تحدي حضاري غربي صارخ في عقر دور المجتمعات الأخرى، يواجه خصوصيتها بنسق مهيمن بسيادة العلم والتقنية الحديثة والمنافسة الحادة، وبإنتاج نوعي لا يضاهى بكفاءة إنتاجية أعطت وجهًا آخر مختلف عما اعتاد عليه أهل المجتمعات التي يتم غزوها بالعولمة في القرن الواحد والعشرين، لقد كان لهذا الفارق أثر كبير ومتميز بدا من خلال الصراع العربي الإسرائيلي منذ أن تم إنشاء إسرائيل في منتصف القرن العشرين، وصار الفارق يلح بوضوح وصراحة للوقوف مع الذات وراح يطرح التساؤلات لماذا وكيف يمكن ردم الهوة الحضارية بين الدولة الصهيونية والعالم العربي!

إن أهم عوامل التقدم في أي مجتمع هو العطاء البشري، وقد يبلي بلاء حسنًا إذا كان الكم البشري والتميز في العطاء متناغمان أو ما قلنا عنه وجود البنى التحتية المعلوماتية الفكرية والنفسية عند الأفراد، هناك من المجتمعات من تشذ عن قاعدة توفر الكم البشري لحسم التفوق، وقد تكون إسرائيل واحدة من هذه الشواذ

إذا نظرنا إليها ككيان للإسرائيليين فقط، لكنها في الحقيقة كيان بشري أكبر من ستة ملايين يقيمون فيها إذا أخذنا في الاعتبار يهود العالم والمسيحية الصهيونية وحلفاؤها السياسيين وما عندهم من طاقات وإمكانيات يستند عليها المجتمع الإسرائيلي، من هنا نجد أن التفوق الإسرائيلي الحالي ليس بمستغرب في ظل وجود عطاء وكم بشري مميزين لكن العامل الحاسم هو الكيف، والقول الأكثر حسمًا هو تفاعل الكم والكيف البشريين.

لو وقفنا عند ناحية الكيف عند الإنسان نجدها إما ممكنة أو ملموسة بالحواس، وبين الممكن والملموس فرق كبير، الممكن احتمال وطاقة وإمكانية تحقيق، أما الملموس فهو واقع وإنجاز فعل له أثر، لكن الممكن ما يزال قائمًا ويمكن تحقيقه ما دام هناك بشر لأنه مخزون في البشر، لذلك يجب أن يعلم من لا يعلم أن ليس هناك عِرقا معينًا من البشر لأن أصله أوروبي أو أمريكي أو إسرائيلي متفرد بما عنده من الممكن، فالطاقة الكامنة عند كل إنسان موجودة عند كل بني البشر في أي أمة وفي أي قطر، ولكي تظهر على صورة فعل لا بد من تهيئة الظروف والمناخ وبناء الإنسان القادر على جعلها حقيقة أي فعل في المجتمع.

وهذا يعني أن التفوق عند مجتمع ما على مجتمع آخر ليس قانون حياة يستمر على وتيرة واحدة، فقد عبر على التاريخ أقوام وإمبراطوريات وما زال التنافس بين الأمم مستمر لأنه أحد أسرار الخالق في الإبقاء على الفكرة ونقيضها، التفوق كالمال أو الغنى لو صح التشبيه، اليوم عند هذا وغدًا عند آخر، ولكل عصر دولة ورجال، والسر يكمن في من يستطيع أن يُهيئ المناخ لتحويل الكامن عند البشر إلى فعل.

قد يكون ممكنًا الآن أن نقول، إن الفرق بين مجتمع متفوق وآخر يحتل مكانًا متأخرًا، أن المتفوق هُيأت له الظروف والوسائل لكي يظهر الطاقة الكامنة الموجودة عند الأفراد، وقد يتأخر المجتمع بطريقة أخرى، إذا ما تبعثرت الطاقة الكامنة عند أفراده ولم تأخذ وجهتها الصحيحة، نتيجة عدم تهيئة الظروف المناسبة، إن التفوق هو إبداع المجتمع حينما يتيح الفرصة لأفراده أن يحصلوا

على التأهيل والتوجيه الذي يحدد مستوى العطاء ونوعه في بيئة ذات بنية اجتماعية صالحة، فتكون جائزة هذا المجتمع التفوق على الآخرين.

إن البيئة المجتمعية المناسبة تُعتبر أهم من البشر القادرين على الفعل، وليس أدل على ذلك أن المهاجرين العرب والمهاجرين من دول العالم الثالث على وجه الخصوص إلى بلاد المجتمعات الأولى في الغرب، تراهم يُصبحون قادرين على الإنتاج والإبداع في البيئات الجديدة التي هاجروا إليها، رغم أنهم بالذات كانوا قبلاً في مجتمعاتهم الأصلية كمًا مهملاً، طاقته الكامنة إما مُغيبة أو مُعطلة، في البلد الأصلي لا ينتج الفرد شيئًا وفي البيئة الجديدة أصبح طبيبًا ومهندسًا وباحثًا وقيادة اجتماعية، وحتى إنه تقدَّم الصفوف في بعض الأحيان، لم يكن هذا ليحدث لولا أن هذا العربي أو غيره من المهاجرين قد وجد البيئة المناسبة التي ساعدت على تفجير طاقاته وجعلتها فعل راح يُساهم في تقوية المجتمع الذي أتاح له الفرصة.

لو ألقينا نظرة على المجتمعات العربية كلها في المغرب والمشرق نجدها متشابهة مائة بالمائة في شيء واحد، هو أنها مجتمعات استهلاكية وحسب، وهذا يفرض سؤال، لماذا لا تُنتج هذه المجتمعات ما دام في البشر كلهم طاقات كامنة، وما دام نفس الإنسان الذي وصمناه توًا بالمستهلك فقط لا ينتج! إذن لا بد من البحث عن الحل!

من ناحية، مما يؤسف له أن المجتمعات العربية تسير في اتجاه الإقليمية أكثر فأكثر مع مرور السنوات، وهو ما يجعلها ليس مكبلة فقط بل معوقة بتشويه دائم، لا يحتاج المرء إلى بحث كبير لكي يتأكد أن لا دولة عربية واحدة مؤهلة مستقبلاً أن تكون مستقلة بمعنى السيادة الكاملة حسب مفهوم الدول العظمى، بمعنى أن لا دولة عربية يمكن أن تُصبح ذات نفوذ في هذا العالم لسبب بسيط، لأنها لا تملك من البداية الطاقة المؤهلة التي تُجيز لها أن تقف على أرض التحول في المجتمع التي من الممكن أن تفسح المجال للطاقات الكامنة فيه عند الأفراد لكي تتحول إلى فعل.

من ناحية ثانية، إن التنوع الجغرافي الحاد الذي جعل مصر زراعيـــة والكويـــت بترولية وموريتانيا صحراوية وما بينها من تباين بين البلاد العربية الأخرى، قـــد جعل هذه المجتمعات كل على حدة غير قادر على تهيئة البيئة والمنـــاخ للأفـــراد لكي ينافسوا بحجم فعل منافس لفعل غزير عند الآخرين، إن الصـــهيونية ليســـت عدوًا للفلسطينيين فقط، هي تحدي لكل العرب، وعلى أي بلد عربي ألا يظن بأنـــه سيقدر منفردًا في المستقبل أن يتخلص من الهيمنة الصهيونية المتحالفة عضويًا مع الغرب، عوضًا عن الموالين أصلاً إليها في المجتمعات العربية، ما لم يُصـــبح كل بلد عربي له امتداد وولاء حقيقي من العرب الآخرين، إضـــافة إلـــى إطـــلاق الطاقات الذاتية عند الأفراد كما بيَّنا، فستظل تلك الدويلات العربيـــة فـــي خطـــر، وستظل كفة الميزان مائلة ناحية إسرائيل، لأن إسرائيل كيان عضوي مندمج مـــع الغرب، عدا أن أفراد المجتمع الإسرائيلي وقياداته بالذات، أتو جاهزين ومؤهلين بما عند الغرب من قدرات تسمح بإخراج الطاقات الكامنة.

إن من الأخطار التي لها ما لها من تأثير على إبطاء المجتمع العربي عن اللحـــاق بركب المجتمعات المتقدمة، أن رأس المال العربي كله تقريبًا من عوائـــد الثـــورة البترولية التي تميز هذا العصر، مركزة عند الأقلية العددية من المجتمع العربـــي في دول مجلس التعاون التي نصَّب من أراد من الدول العظمى سورًا كبيرًا حولها، وأبقى الكم العربي الفقير خارج هذا السور، وهو ما قد يأتي بالسلبيات أكثر مـــن الايجابيات.

شيء طبيعي ألا نرى تقدمًا ملموسًا أو إنجازًا على أرض الواقع بســـواعد أبنـــاء مجلس التعاون رغم توفر الثروة، بل إن مجتمع مجلس التعاون العربي هو مجتمع استهلاكي أو بصورة أخرى هو أفضل سوق استهلاكي عالمي، إن التفاوت الشديد في الغنى بين المجتمعات في البلدان العربية في البنى الاجتماعيـــة والاقتصـــادية والسياسية، ينعكس على أوضاع البشر أيضًا، ويُبقى الدولة الصهيونية زعيمـــة للمنطقة!

لا شك أن افتقار المجتمع العربي إلى الأخذ بروح العصر، وعدم بنـــاء الإنســـان على أسس وقيم تتيح له أن يُنتج بحيث أن السلطة في الدولة تُهيئ المجتمع لأجل أن يفتح المسار والأبواب ويُقدم ما يتوجب من التأهيل للفرد لكي يستعين الفـــرد بما يحتاج حتى تتفجر طاقته الكامنة ويُبدع ويُعطي ناتج لمجتمعه، لكي يـــنعكس بعد ذلك هذا الفعل أو الناتج الفردي في إغناء مجتمعه، وتصير للسُلطة الممثلـــة لجميع أفراد المجتمع هيبة وغنى تباهي بها الأمم، ما لم يتوفر هذا فلا تطـــور ولا تقدم.

إذن دعنا نتصور أن السُلطة أو الحكومة تُهيئ المجتمع لاستقبال الفرد وتمنحـــه الحرية والأمان، والفرد يُعطي من طاقته الكامنة لمجتمعه فعل، والمجتمع يُعطـــي منتوج آخر بطريقة أخرى إلى الفرد وإلى السُلطة، ويظل هذا التناغم بين السلطة - المجتمع – الفرد ولا يتوقف، وتبقى آلة النمو والتطور تدور تواكـــب العصـــر وحضارة العصر، أو كما تفعل المجتمعات في الأمم المتفوقة، فحين ذلـــك تتغيـــر صورة المجتمع أمام أفراده وأمام الآخرين.

إن فارق التفوق بين الدولة الصهيونية والعرب يعود إلى أن الصـــهيونية تعمـــل على توظيف القدرات والإمكانيات المتاحة في تقديم الاستجابة الفاعلة مقابل تدني الكفاءة والأداء القيادي في النظم العربية، وتظل الدولة الصـــهيونية فـــي نمـــو حضاري مستمر، وتبقى المجتمعات العربية راكدة تنبعث منهـــا رائحـــة التخلـــف والعجز.

إن الركون إلى أن العرب أمة ضعيفة ومتخلفة، وأن حـــل مشـــاكلنا يكمـــن فـــي واشنطن أو موسكو أو لندن أو باريس، تحت مبرر أن للصهيونية نفوذ كبير فـــي تلك الدول، إنما هذا منطق الذين تلتقي مصـــالحهم مـــع أن تكـــون الصـــهيونية وحلفاؤها هم الأقوى دائمًا، وهؤلاء باتباعهم هذه الاستراتيجية إنما هم يحافظون على مكاسبهم في السُلطة لكي تدوم، وبالتالي هم يُبقون عجلة مجتمعاتهم متوقفة عن الدوران، ويبقى الفرد مُقيدًا في مجتمعه لا يُقدم الفعل فضلاً عن تخلف الوعي والمعرفة، وبذلك يظل التجاهل للمشروع الصهيوني الذي بنيـــت علـــى أساســـه

الدولة الإسرائيلية في فلسطين، الذي هو في الأساس يعود إلى العلاقة العضوية بين العواصم الأجنبية التي نسعى دائمًا إليها وننشد أن تحل مشاكلنا مع الصهيونية.

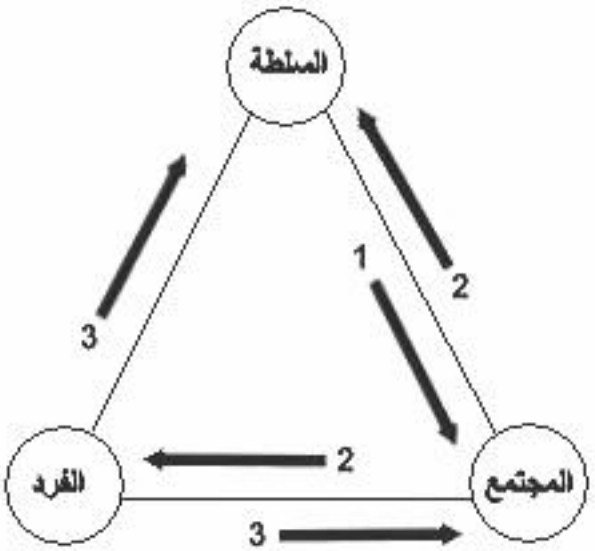

1. السلطة تهيء المناخ العام في المجتمع.
2. المجتمع السليم يتيح الفرص للافراد. ويطور السلطة.
3. الفرد اللبنة الاولى في المجتمع لرفع البناء، والتميز في تقديم النوابغ لقمة السلطة.

إن من الأدلة التي لا يتوجب الإغفال عنها كلما حاولنا أن نضع استراتيجية تخدم وجودنا وحياتنا، وتُدَعِّم أي انطلاقة ننشدها إلى الأمام، علينا ألا ننسى أنه لم يمضِ سوى عشر دقائق على إعلان ديفيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م إلا وأعلن هاري ترومان الرئيس الأمريكي آنذاك اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الصهيونية، ولم يمض سوى ثلاثة أيام فقط إلا واعترفت موسكو بالدولة الصهيونية.